

ووضعه وعسى أن تكون مترجمات العرب المشار إليه في الأيام المقبلة أتم وأكمل لتزيد منها فائدة المطالعين والمتعنين والله لا يضيع أجر الحسنيين.

الصحافة العثمانية

الصحافة أو فن الجرائد والمجلات هي عنوان ارتقاء الأمة المحسوس وكل أمة كانت صحافتها أوسع وأمتع يموغ لك أن تحكم عليها بأنها أرفع وأمنع، فالجرائد الانكليزية مثلاً أوسع مادة وأبعد نظراً وأصدق أقوالاً من الافرنية والإيطالية لأن الانكليز رجال الاتجار والاستعمار أعنى كعباً من الفرنسيين والطنيان ودولتهم أرقى الدول.

وهكذا الحال في صحافة الأمة العثمانية المختلفة العناصر والأجناس وتاريخها يرد إلى سنة ١٢٧٦ هـ، ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن الصحافة التركية أرقى من الصحافة العربية والرومية والأرمنية والبلغارية وبعبارة أخرى أن الصحف التركية أرقى من العربية إذ لا يجوز لنا أن نحكم على الصحافة الرومية والأرمنية والبلغارية ونحن لا نعرف لغاتها لنقرأها بها والحكم على الشيء فرع عن تصوره، أما التركية فنعرفتها بما يتيسر لنا الحكم على جرائدها وجرائدنا معاً كنا نحكم على الصحف الافرنية التي تصدر في بلادنا أيضاً.

كانت الجرائد العربية قبل الانقلاب الأخير عبارة عن الأعياب ورويات عن السياسات الخارجية محرفة وكان يحظر عليها خصوصاً في العشر السنين الأخيرة أن تبحث في موضوع اجتماعي إداري أو سياسي وطني فكانت موضوعاتها من ثم مسخاً أو ملخاً من جرائد أوروبا والأستانة في شؤون تافهة لا ترقى عقلاً ولا تلقن فضلاً.

ولما أنقذ الله البلاد من ظلم الاستبداد كانت صحافتها أول ما تحرر من أوضاعها مع صحافة العناصر الأخرى فداهمتها الحرية على حين غرة وأصبحت في حلٍّ من الخوض في

كل موضوع وعندها ظهرت كفاءتها وصح لمن يريد التنظير بينها وبين الصحافة التركية أن يصدر حكمه عليهما.

لم يكن في سورية والعراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس الغرب غير بضع جرائد ومجنتين في مدينة بيروت ولبنان وواحدة في دمشق وأخرى في طرابلس الشام أما حلب والبصرة وبغداد واليمن والحجاز فكان يصدر في كل واحدة منها جريدة رسمية باسم ولايتها نصفها بالتركية والنصف الآخر بالعربية المقيمة وسائر قواعد البلاد خالية من الجرائد الرسمية وغير الرسمية لأن الجرائد كانت العدو الكبير للسلطان المخنوع فلم يكن يسمح بإصدارها إلا مضطراً أو بالاحتيال العظيم والبذل الكثير.

ولم تحض سنة على نشر القانون الأساسي حتى ظهرت بضع جرائد يومية جديدة في بيروت ودمشق وحلب وصدرت في الموصل وبغداد والبصرة ومكة وجدة وطرابلس الشام وطرابلس الغرب والقدس وحيفاء ويافا ومرج عيون واللاذقية جرائد أسبوعية متناسبة مع حال البلاد التي تصدر فيها وإن كانت جرائد سورية من حيث التركيب البياني والنغوي أرقى من جرائد غيرها من الأقطار لأن المنكة العربية مستحكمة من القائمين بها في بلاد الشام أكثر من غيرها ولكن تلك الجرائد الصادرة في الأقطار الأخرى نافعة على كل حال بما تأتي به من الأفكار والأخبار وسيكون منها بحول الله النفع العام لمن تنشر بين أظهرهم.

أما الجرائد التركية قبل الدستور فكانت عبارة عن مقتطفات من الصحف الأوروبية في السياسة الخارجية وتبليغات أوامر الحكومة الاستبدادية وأبواق عصصت لتأليه عبد الحميد الثاني وإطرائه إطراءً لم يعهد في لغة من اللغات ولا في أمة من الأمم وكانت تلك

الجرائد متخومة بإنعامات السلطان السابق ورشى بعض الشركات لتساعدها على ابتزاز خيرات السلطنة، ومع كل هذه المساوي كان الارتقاء بادياً على الصحافة التركية أكثر من غيرها لأن التركية لغة الحكومة وجرائدها مقروءة في بلاد الترك من آسيا وأوروبا كنا تطالع في غيرها من البلاد لكثرة الموظفين وغيرهم ممن يعرفون التركية ويهتمون أن يطنعوا على قرارات حكومة العاصمة ومنشوراتها وأبحاثها.

ثم إن الأتراك مجموعهم أرقى بتربيتهم وتعليمهم من مجموع العرب ونظام الأسرة عندهم أمثل منه عند أكثر العرب والمرأة التركية والحق يقال أكثر تعظيماً وتقديراً من المرأة العربية، فقد تطوف البند الكبير في هذه الديار ولا تجد إلا بضع بنات محلمات ولو استقرت قواعد البلاد التي يغلب فيها العنصر التركي لرأيت المتعنات من التركيات ينفن الثبات والألوف ولا سيما في العاصمة، وهذا هو أحد أسرار انتشار الجرائد في الأتراك أكثر من انتشارها هنا لكثرة سواد القارئ والقارئات عندهم وقتل عتدا.

وإذا أردنا المقارنة بين الصحف التركية وخصوصاً صحف العاصمة وبين الصحافة العربية في الولايات تكون للعربية الدرجة الأخيرة بين الصحافة العثمانية فيما نحب ولذلك وجب أن نقابل الصحافة العربية كلها بالصحافة التركية كلها أي الصحف التركية التي تصدر في الأستانة وازمير وسلاطية وادرنه ومناسير وغيرها من البلاد العثمانية والصحف التركية التي تصدر في القريم والقافقاس مع الصحف العربية التي تصدر في الولايات العثمانية ومصر وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وجرائد المهاجرين من السوريين في أميركا الشمالية والجنوبية، وهذه الصحف على اختلاف مصادرها مستمتعة بحريتها

الفكرية ما خلا بعض صحف تونس والجزائر والقرىم والقافقاس وإذا كانت درجة ارتقاء الشعوب التي تلى عليها متفاوتة جاءت هي كذلك.

ولذا كان من اللائق إذاً أن نقيس صحف بلد معين بآخر معين لأن قوة الجرائد بقوة من تصدر بينهم كما قلنا وإذا كان أهل الأستانة أرقى من حيث اجنوع من أهل سائر الولايات ومدينتهم عاصمة سنطنة عظمى من أعمالها ثلاثون ولاية عدا الايلات المستقلة وهي مهوى أفندة الأمم الإسلامية كافة كانت صحافة الأستانة أرقى من صحافة القاهرة وهي عاصمة مملكة فيها نحو ثلث مكان الولايات العثمانية ولها سبق علينا بالاستمتاع بنعمة الحرية. ومركز القاهرة السياسي مهم أيضاً وأهلها عريقون في الحضارة منذ عشرات من السنين وهي في غناها الطبيعي أغنى من الأستانة في الحقيقة، فلا عجب إذا امتازت فروق من هذه الوجهة عن مصر.

تأملنا كثيراً في صحافة مصر والأستانة في العهد الأخير فرأينا أمهات الجرائد التركية أرقى من أمهات الجرائد المصرية مادة وأسلوباً وشكلاً ووضعاً وطبعاً، ولا أعالي إذا قلت أن جريدة طنين ويكي تصوير أفكار ويكي غزته وصباح وإقدام لا تفوقها الطان والديبا والفيغار والماتين والجورنال إلا بحوادثها الخارجية وما عدا ذلك من البحث في إدارة البلاد وسياستها الداخلية وأخبارها وأفكارها وآدابها واجتماعها فالجرائد التركية شقيقة الجرائد الفرنسية بقيتها إلا قليلاً هذا مع بعد عهد الفرنسيين بالحضارة وقدم جرائدهم وقرب عهد الترك بها وحدثة جرائدهم. وتفوق جرائد القاهرة كالنواء والمؤيد والجريدة والأهرام والمقطم مثلاً بأنها أmeer في الضرب على الوتر الحساس في الأمة أكثر من جرائد الأستانة.

أما المجلات الفرنسية فهي أرقى بلا جدال من المجلات التركية وتصدر تحت سماء الأستانة بضع مجلات مثل علوم اقتصادية واجتماعية مجموعة وملكبة وشهبال وثروت فنون لا تقل في أبحاثها وتدقيقها في موضوعاتها عن المجلات العربية الكبرى في مصر والشام وهي أرقى منها من حيث الوضع والطبع وأشبه بالمجلات الأوروبية في أن أبحاثها تكتبها الأيدي المتنوعة من أهل الإخصاء، ومن العجيب أن مصر على كثرة عنايتها بالأخصائيين لم يصدر فيها حتى الآن مجلات يكتبها المصريون أنفسهم ولولا مجلة الجامعة المصرية وصحيفة نادي دار العلوم وهما ابتنا هذه السنة لقننا أن مصر لا تميل للعلميات مينها إلى السياسات وأهل العلم والأدب فيها لا عبر لهم على المشاريع العلمية حتى تنضج كما صير أرباب المشرق والمقطف والنار واللال والمقتبس والجامعة وغيرهم من أرباب المجلات السورية الحديثة كالمباحث والنبراس والمنتقد والحساء والكوثر والعمدة والعرفان وغيرهم ممن لا تحضرنا أسماؤهم في مصر والشام.

أما جرائد سورية اليومية فهي أشبه من كثير من الوجوه بالصحافة التونسية من حيث المواد وقلة البحث في حالة البلاد وإن كانت جرائد الشاميين أكثر حرية وأسلم عبارة بل أنضح أسلوباً من جرائد التونسيين والفضل في ذلك للندارس التي تعلم آداب العربية في الشام أكثر من تونس على أن المنكة التونسية وإن كانت أصغر من الجزائر ومن مملكة مراكش فهي في هذا العهد أرقى لهجة وعربية منها بل هي بالنسبة للجزائر كنسبة سويسرا إلى إسبانيا أو ألمانيا إلى روسيا ولعل كثيراً من فقهاء الجزائريين يحرمون حتى اليوم كععض فقهاء المراكشين ما يقال له الجرائد والمجلات وكم للجامدين من جنابات جنوها على الدنيا والدين.

وقصارى القول أن الصحافة التركية أرقى مجموعها من الصحافة العربية ولا سيما في السياسات والإداريات والعسكريات، والترك منذ قرون هم أهل السياسة والإدارة والجنديّة وأدبياتهم أيضاً أقرب إلى الأدبيات الغربية من أدبيات العرب، وعسى أن يكون الترقى الذي يتناول كل أمة فينبهها حظها منه في ظل القانون الأساسي يجري التعادل بين البلاد فيعم الارتقاء أنحاءها كافة بعد جيل أو جينين من الناس ويجد رجال صحافتنا في الولايات العربية في ترقية جرائدهم ومجلاهم ويسهرون على إبداعها كل مفيد من الأبحاث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والإدارية والعلمية والأدبية بحيث يزول عن العقول صدورها فتحنى من حنى المدنية الحقيقية بما ينيلها السعادتين وينبطها عليه أهل الخافقين.

غنى العثمانيين

لا يعقل أن تكون المسكة العثمانية على هذه السعة والاعتدال وفيها من الأنهار والخراج والمعادن ما فيها ومن ذكاء سكانها وزكاء تربيتها العجب العجائب وتصبح في هذه الدركة من الفقر والانهطاط.

لا يعقل أن تكون بلاد هذه السلطنة التي ضمت إلى صدرها كثيراً من ممالك الأقدمين كالفينيقيين والفسانيين والنخيين والحشيين والحميريين والصفويين والبطيين والبابليين والآشوريين والمقدونيين واليونانيين والفراعنة وتكون مساحة ولاياتها الثلاثين خمسة أضعاف ألمانيا ولا يكون فيها من السكان سوى نحو ثلاثين مليوناً على حين يبلغ سكان ألمانيا زهاء خمس وستين.